

طرائف من العصر المملوكي :

## رسالة الدار عن محاورات الفار

أرفن القصة

للأستاذ محمود رزق سليم

بنة ما نشر في العدد الماضي

اتبع كذلك المؤلف طريقة الحريري والهمداني في ابتداء شخصيتين في القصة ، شخصية راو هو « حنان » وصروي عنه وهو « الحكيم حبيب » التي أشرنا إليه فيما سبق . فيقول مثلا « قال الراوي حنان . معدن الطرافة والإحسان : فتوجه الحكيم حبيب الأديب الأريب إلى إيراد الأخبار . عن الهداة الأخيار . فحكى أن ملكا من ملوك الأمصار . وسلاطين المعجم يدعى « شهر يار » ... الخ » . وذلك شبيه بما كان يقوله مثلا أبو القاسم الحريري : حدثنا الحارث بن همام ... ثم يقص قصته عن أبي زيد السروجي .

وقد توخى المؤلف في كتابه ، مفاكحة الناس على اختلاف درجاتهم وتباين مشاربهم ، من الحديث الشوق الذي يجذبهم إلى سبيل الخير . وأسلوبه وإن كان مزدهما باليديع وبخاصة السجع ، لأنه من المولعين به ، من الحق علينا أن نصفه ، وأن نذكر أنه أخف مثونة من أسلوب المقامات العباسية حين بلغت أوجها على يد الهمداني والحريري . وهو أكثر حكمة وأوفى مثلا وأدق تعبيراً وأكثر تحليلاً لخفايا النفوس ، وإظهاراً لها وجها . فلم يقتصر على الأوصاف الحسية بل حلل وتممق وأمن ودقق . فليست البراعة الأسلوبية رائده الأول أو دافعه الأكبر على تدييع قصصه وتأليف كتابه . وبهذا كله يفترق عن كتاب المقامات .

أما المقامات فقد عرفناها منذ عصر بني العباس ، قصصاً وصفية يعني فيها بإظهار البراعة في الصناعة البديعية . وقد أجمه من أدباء العصر المملوكي إلى إجادة هذا الفن من القول . وقد تسددت موضوعاتها واتسع نطاق الوصف فيها ، وخرجت من

محت الاستجداء ، واستنوت المقامات فأصبحت في مقدمة الأغراض الكتابية في العصر المذكور ، ومظهراً من مظاهر الصناعة البديعية ، مع قلة تمسك ، وخفة مثونة . وقد قرأت أربع مقامات لزين الدين بن الوردى ( ٧٤٨ هـ ) التزم في أولها أن يقول : « حدث إنسان . من معرة النعمان » أو نحو ذلك . ولعله يقصد بالإنسان نفسه ، وأولى هذه المقامات « القامة الصوفية » وقد صور لنا فيها رجلا في عشرة رجال كانوا يتجادلون في أمر الصوفية فطفق الرجل يشرح لهم ما خفي عنهم من أمور الصوفية وأسرارهم وشروطهم وما إلى ذلك . فكأنما هي درس تلميحي لا قصة كما نفهم القصة في العصر الحديث . وضمن منشوره شيئاً من النظم المناسب المقام . وفي مقامه الثانية « الأنطاكية » حدث عن مدينة أنطاكية وما فيها من مظاهر طبيعية جميلة ، وقد اتى فيها واليها ، فجلس إليه ، وأخذ الوالي يبثه شكواه من البغيضة الضاربة الرواق بين عجم المدينة وعربها . وخالل نثرها على عادته بأبيات عدة . ومن وصفه فيها قوله عن المدينة : « سورها منيع ، وعاصمها مطيع . وأطيافها تحن إلى نفاها الجوارح . وأنهارها مطردة وعيونها سوارح . ونسمها يبطل رائحة المسك السيق . وساكنها يزهي على الفصن الورديق . يصدأهم وأنها السلاح ، وتجيلى به القلوب والأرواح . برة بحرية . سهلية جبلية . منشورها منشورها :

متكامل فيها السرور لمن بها . يوماً أقام كما تكامل سورها  
وخلت قلوب قصورها فاستضحت

إذ عاش شاكرها ومات كفورها » ... الخ

وأنت ترى أن هذه مقامة وصفية . وعلى هذا النحو تقريباً جرى في مقامتيه الآخرين « النبعية » و « الشهيدية » . وله مقامة أخرى تعرف « بصفو الرحيق في وصف الحريق » بدأها بقوله « حدث فيث بن سحاب عن ندى بن بحر » واشتملت على وصف حريق شب في مدينة دمشق .

ومن كتاب المقامات صلاح الدين الصفدي ( ٧٥٤ هـ ) وله مقامة وصف جريق أيضا . ويبدو من سياق حديثه فيها أنه نفس الحريق الذي وصفه ابن الوردى في مقامته .

ولتقى الدين بن حجة الحموي ( ٨٣٧ هـ ) مقامة طارض بها القامة الزورائية للحريري . وللشباب الطريف ( ٦٨٨ هـ ) مقامة

قلارون « مؤلفه شمس الدين الشجاعي و « ترجمة الأوزاعي » لابن حجر المسقلاني ( ٨٥٤ هـ ) و « سيرة نور الدين زنكي » لبدر الدين بن الشهيد الدمشقي كتبه عام ( ٨٧٤ هـ ) . وغير هذه المؤلفات كثير .

وقبل أن نختتم هذا المقال نحب أن نفوه بشيئين هما من القصة بسبيل : أحدهما الشعر القصصي ، والثاني الشعر التمثيلي وهما من الأدب العربي — إلى عهد قريب — نادران . ومن العجيب أن ترى في العصر المملوكي نشاطاً من القراء في ميدان القصص ، وقد نوهنا في مقالنا عن « البردة » عن جهود أصحاب البديعيات ، وعن أبياء البردة الذين عارضوها ، ومنظوماتهم عبارة عن قصة الرسول عليه الصلاة والسلام . وللاشعراء في غيرها جهود محمودة ، فن من منظوماتهم « سيرة بيبس » لمحي الدين بن عبد الظاهر ( ٦٩٢ هـ ) و « سيرة رسباى » لبهاء الدين الباعوني ( ٩١٠ هـ ) وهي أرجوزة في ٥٥٧ بيتاً . والجوهرة في سيرة المؤيد شيخ نظمها بدر الدين العيني ( ٨٥٥ هـ ) . والعجيب أن ترى هذه النزعة القصصية لدى الرجالين ، وقد نوهنا بذلك في مقالنا عن الرجل والزجالين وأشرنا إلى جهود القيم خلف الغباري ، والقيم بدر الدين الزيتوني .

أما الشعر التمثيلي فليس له وجود بالمعنى الذي نفهمه في العصر الحديث أو عنه في المصور القديمة في الآداب الأجنبية . غير أن بعض أدبائنا عثروا عن كتاب « طيف الخيال » لمؤلفه الشاعر الفائر الماجن الطيب شمس الدين بن دانيال الموصل ( ٧١٠ هـ ) الذي كان يعيش بالقاهرة ، وقد تصفحنا هذا الكتاب في دار الكتب المصرية . وهو مطبوع في أوربا وبه مقدمات مكتوبة بالألمانية . ولعل المطبوع منه قسم من المؤلف الأصيل . ونستطيع القول إنه عبارة عن مقامة تمثيلية طويلة بصفتها المؤلف لمبة « خيال الظل » . وينطبق فيها أبطال التمثيل على مسرح أمام النظارة ، خلف ستار يضاء بالشمع . أما الأبطال فنشخص متعددة منها ما يمثل آدميين ، وما يمثل حيوانات . ومن الأدميين : الرئيس ، وطيف الخيال وهو شخص أحدب ، وحبش الحاربي ، وصيحه المايجيني ، ونباة المشاب ... الخ

وصف بها شاباً برح به الغرام . ولشرف الدين بن أسد المصري ( ٧٣٨ هـ ) مقامة فكاهية روى فيها حكاية أحد النحاة مع أحد الأساكفة ...

ومن فرسان المقامات جلال الدين السيوطي ( ٩١١ هـ ) الذي ضرب في كل فن بسهم . وله عدد ضخم من المقامات فمنها « بلبل الروضة » وصف فيها جزيرة الروضة . والمقامة « الوردية » وهي قصة تمثيلية أبطالها الأزهار فقد افترض الكاتب أن الأزهار اجتمعت عما كرها وعقدت مجلساً حافظاً للجدل والمناظرة لاختيار أحدها بالملك فصعد كل منها المنبر وحاوور وجادل . فتحدث الورد أولاً ثم النرجس فالياسمين فالبلان فالنسرين فالبنفسج فالنيلوفر فالريحان ، وشرح كل منها نفسه وزكاها ببيان أوصافها وذكر مزاياها ... ثم أسلم الجميع للريحان وخضعوا لسلطانه .

وعلى نمط مقامته الوردية دمج عدة مقامات أخرى وصف فيها أنواعاً من النار أو الأحجار الكريمة أو نحو ذلك مثل المقامة « المسكية » و « التفاحة » .

ومن أطرف مقامات السيوطي مقامته « رشف الزلال من السحر الحلال » وتسمى أيضاً « مقامة النساء » وقد وصف فيها عشرون عالماً في فنون مختلفة — ما بين نحوي ومفسر ووقفيه وأصولي ... الخ — ما جرى لسكل منهم بينه وبين عرسه ليلة دخوله ... روى كل منهم في حديثه بمصطلحات علمه وفنه ... وعلى نمط المقامات تعددت وتنوعت مظاهر القصة الأخرى من رسائل ومحاورات وموازات ومفاخرات كالموازنة بين النار والتراب ، والمفاخرة بين السيف والقلم .

أما سير الأبطال وتراجم الرجال فما أكثرها في هذا العصر وما أجلها وأعظم شأنها ، غير أنها أقرب إلى النزعة التاريخية منها إلى النزعة الأدبية . ومن بينها موسوعات ضخمة ، ومن بينها تراجم فردية مستقلة . ومن أمثلة الأخيرة وهي التي نقص سيرة رجل واحد ، كتاب « عجائب المقدور في أخبار تيمور » لشهاب الدين بن عربشاه ( ٨٥٤ هـ ) الذي أشرنا إليه من قبل . و « التأليف الطاهر في شيم الملك الظاهر » وهي سيرة السلطان جقمق كتبها ابن عربشاه أيضاً . وكتاب « تاريخ الناصر بن